معجزات الله فى الخلق

حامد الجوهرى

الغـــلاف :

الفنان : جميل شفيق

سكرتير التحرير التنفيذى :

نـزيه عبد الغنى

مؤسسة دار التعاون
للطبع والنشر

رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد

رئيس التحرير:
سعيد نور الدين

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتى - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٣

إهـــــــــداء

إلى من ربيانى صغيرا وهذبانى يافعا وعلمانى كبيرا . . إلى والدى رحمهما الله .

وإلى قرينتى وأولادى وإخوتى وأساتذتى والمسلمين والمسلمات وإلى الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها .

أهدى هذا الكتاب .

حامد الجوهرى

المقـــــــــــــدمة

التعرف على الله أمر شغل الإنسان منذ بدأت حياته على الأرض ، يدفعه إليه شوق عنيف تسوقه الفطرة الكامنة بداخله . . يتطلع الإنسان إلى مظاهر الحياة بألوانها وأشكالها من خلال حواسه ، ثم ينفعل بها شعوره ، ويتناولها عقله ، وينفذ إليها ببضيرته لمحاولة الوصول إلى الحقيقة الكبرى التى هى مصدر وجود هذا العالم وإليها مصائر أموره .

وتتفرق به السبل وتأخذ محاولاته أشكالا متعددة ومتباينة تختلف باختلاف الناس واستعدادهم الفكرى ـ فلكل وجهته التى هو موليها قدر مبلغه من العلم وحظه من التوفيق .

وحين تضل العقول سبيلها إلى الخالق وتنزل الإنسانية إلى درك السفه فى اتخاذ حيوان أو جماد أربابا لها تجثو تحت أقدامها وتعبدها ، تطل رسالة السماء لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على يد رسل الله وأنبيائه ، وأول دعوة تهتف بها الأديان السماوية وحدانية الله وتحرير العقول من الشرك ، فتصبح إنسانية الإنسان ويكون أهلا لأن يصبح خليفة الله فى أرضه .

ومهما اختلفت سبل الأديان السماوية فى الدعوة إلى التوحيد ، فإنها جميعا تعتمد على تحريك الوجدان واستثارة العاطفة ، أكثر من اعتمادها على إثارة قوى الإدراك والتفكير ، ذلك أن حقيقة الله أكبر وأعظم من أن يحدها فكر أو يحيط بها إدراك وإن كان لهما فى آياته على مسرح الخلق آفاق رحبة لا تحدها حدود النظر والتأمل ، تعين العقل على الإقتناع بما وقر فى القلب وتثبت به الطمأنينة فى النفس ، فتزداد روعة وجلالا لأن العقل وحده بغير أن نمسك به عن التفكير والبحث فى التعرف إلى الله بعد أن تسبقه العاطفة والوجدان ، قاصر عن إدراك الحقيقة الإلهية وعاجز عن تناولها ، خاصة إذا اندفع وراء خيالات وفروض واشتط فى التطلع إلى ما فوق طاقته قاصدا البحث عن الله .

لهذا كان الإسلام دين الفطرة . . والفطرة ليست عقلا محضا ولا عاطفة خالصة وإنما هى مزيج من العاطفة والعقل يلتقيان ، فلا يطمع أحدهما فى الآخر . . فتكون أقرب السبل إلى النفس المتطلعة إلى الله ، المتشوقة للوصول إليه .

، فالتعرف إلى الله عن هذا الطريق ـ تمازج العاطفة والعقل ـ أمر ميسور لا يحتاج إلى علم غزير وإلى نظر فلسفى ، بل تكفى فيه النظرة الخالصة فى صفحات الكون . . فى الأرض ـ فى السماء ، فى الليل وفى النهار ، فى النبتة الصغيرة والشجرة الباسقة ، فى الموت والحياة .

فنظرة واحدة إلى أية صورة من تلك الصور ترى إلى العقل شواهد ناطقة بقدرة الخالق ، وتحمل إلى القلب فيضانا من الإجلال إلى صانع هذا الكون ومبدعه .

« الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »

ولقد تجلى الله تعالى على عباده فى كتابين خالدين ، كتاب منظور هو الكون وكتاب مقروء هو القرآن إستمد معظم حكمه وأمثاله من الكون وظواهره وما يحمله من معجزات تبصرنا بأسرار هذا الكون وما فيه من إبداع وقدرة .

فالتطلع إلى آيات الله فى الكون تأخذ بأيدينا إلى الإيمان عبر مظاهر إبداع الخالق فى هذا الخلق المعجز الذى سير ما فيه بميزان عظيم ، « وماتسقط من ورقة ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » إلا بقدرته جل شأنه ، وحكمته العليا ، ومعجزاته التى لا تعد ولا تحصى .

وإذا كان الإنسان لا يقنع من الحياة بمظاهر أشكالها وألوانها كما تنقلها إليه حواسه لا كما ينفعل بها شعوره ، ويريد أن يعرف الحقيقة فى كل شىء ، من أين جاء وكيف صار وإلام انتهى . . فعليه لإشباع رغبته تلك أن يتعمق فى هذا الكون الشاسع وما يحمله من معجزات تظهر له الحقيقة الكبرى . . حقيقة وجود الله ووجدانيته سبحانه وقدرته وعظيم علمه وحكمته .

وقد مكن سبحانه النفس الإنسانية عن طريق ما أتاها من علم وما ألهمها من أدوات أن تقف على بعض حقائق وأسرار هذا الخلق فى كل زمان ومكان مستهدية فى ذلك بكتاب الله ، الذى يفتح مداركها ويحثها على المتابعة والبحث فى نفس الإنسان وفيما حوله من آلاء ، ويدعوه لتدبر تلك المعجزات ليصل إلى ما يطمئن نفسه ، ويثبت إيمانه ، ويثرى وجدانه بحقيقة الخالق وعظمته وقدرته ومشيئته وهيمنته على هذا الكون الشاسع فى كل صغيرة وكبيرة ومن خلال علم وقدرة وحكمة جل من قدر عليها .

فمن البداهة أن نعرف أن هذا الكون كله يسير وفق نظام فى غاية الدقة يأخذ بعنق الطبيعة ، ويلف خاصره من فيها وما فيها ، بحيث لا تسقط ذرة ولا تصعد أخرى إلا بنظام دقيق ، ولا تموت خلية ولا تحيا خلية إلا بحساب أكثر دقة . .

قدرة العزيز الجبار الذى جعل لكل شيء قدرا ، « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

ولو بحث الإنسان فى الكون وفى نفسه وفيما حوله ، لوجد كل شيء ينطق بعظمة الله ولأيقن بغير ما جهد أن ما فى الكون جميعه صغيرا كان أم كبيرا ما هو الا دليل دامغ على وجود الله وعظيم صنعه فى ملكوته .

فالتفكير فى بديع صنع الله يهدى إلى الإيمان . . فكلما تعمق الناظر فى معانى ما يشاهده من إبداعات فى الأرض والسموات العلى . . زادت درجة اليقين داخل نفسه وملك عليه إيمانه فكره ووجدانه .

لذا فقد حث ديننا الحنيف فى أكثر من موضع على العلم والتعليم والبحث فى الجوانب الحسية والمادية ، كى يعى الإنسان بعضا من القدرة الإلهية التى لا تحدها حدود ، وليكتشف بعقله عظمة هذا الخلق وبعضا من أسراره التى هداه الله إلى كشفها ، وأرشدته آيات القرآن الكريم إلى سبلها .

فبعد قرون وقرون من حديث القرآن الكريم عن وزن الذرة فى قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » يكتشف العلماء أسرار تركيب الأجسام ونظامها المتماثل فى الكون ، إبتداء من أدق الجزيئات وحتى أعظم المجرات ، ليتيقن أن وحدة الأساس هى الذرة ، هذا الإعجاز الذى لا حدود له ولا يقدر عليه سوى الخالق العظيم الذى قدر فهدى .

ومعجزات الله فى مخلوقاته لا تعد ولا تحصى كعدد خلقه وتنوعهم أو هى أكثر . . ومع هذا يكفى أن نرى الله ونستوضح قدرته فى أصغر شيء من هذا الكون تراه أعيننا ، من حبة رمل تافهة بين ملايين مثلها على واحد من الشواطىء الممتدة على اليابسة ، إلى أكبر جبل يقف شامخا فى إحدى بقاع الأرض . . ومن خلية حية دنيئه تعيش متسولة على غيرها داخلنا أو فى باطن الأرض أو فى جوف الماء ، إلى الإنسان الذى ميزه ربه عن غيره من الخلائق ، ومن نقطة ماء تنساب لتقع مهملة تذوب فى كيان آخر إلى أعظم المحيطات التى تحمل على ظهرها العابرات بكل الأحجام والأشكال وتحتضن فى جوفها عوالم من الأحياء والأسرار ، ومن فطر ينمو فى استحياء حتى لاتكاد العين تراه إلى شجرة عملاقة تختال بما لها من أغصان وثمار وجذور تمدها إلى حيث شاءت ، ومن نجم فى السماء منزو فى ركن قصى إلى كوكب كالشمس يسطع نوره ليملأ الكون على بعد ملايين السنين الضوئية .

كل واحد من هذه وتلك مجموعة من معجزات الله أكبر وأعمق من أن يحتويها العقل أو يكشف أسرارها ، مع كل ما تفتق عنه العقل البشرى من علوم ونظريات وما

أنتجه من آلات اخترق بها الفضاء واخترع بها الحاسبات الالية وقاس بها أدق كهربيات الكون وأضخم مسافاته .

وكل هذه العلوم يمكن أن تظهر لنا بعضا من الحقيقة ، ولكنها لا تكفينا لتفسير كل ما حولنا من معجزات الخلق فهى أعجز من أن تحويها جميعا ، لأن وراء معجزات الكون قوة لا حدود لها تحركه وفق قدرتها الهائلة وتسير به وفق نظم وقوانين عليا جل من صاغها وسيطر عليها .

هكذا فإن ما فى أيدينا من علوم وطرق بحث وأجهزة متقدمة لم ولن تستوعب قدر ذرة من معجزات الله فى خلقه . . لذا فلا غنى لنا عن قوة الإيمان قبل قدرة العلم ، وثبات العقيدة قبل نشاط البحث ، واليقين بأن وراء هذا الخلق إلها واحدا باسطا قدرته على كل شىء فيه . . وهنا سيكون ما اكتشفه وسوف يكتشفه العلم سبيلا إلى معرفة الله جل شأنه ، لانه من المحتم أن يكون لهذا الكون خالق عظيم . . وكلما تقدمنا فى بحثنا ، وزدنا من كشفنا لأسرار الكون ، إنحنت رؤوسنا . للخالق إكبارا وتواضعا لله أحسن الخالقين .

وإذا تعقبنا بعض ما يموج به الكون من قدرات خارقة تتمتع بها مخلوقات الله بأنواعها وأشكالها وألوانها وأحجامها المختلفة . . تظهر لنا معجزات أغرب من الخيال . . ولكنها الحقيقة أمام أعيننا ، وملء حواسنا ، يقوم بها الإنسان ويتقنها الحيوان ، ويبدع فيها النبات بتلقائية ماهرة وغريزة مبهرة من حيث الوقت اللازم لها ، وحيث المكان المناسب لوقوعها ، ومع تجمع الظروف التى تهىء فعلها بعفوية مطلقة من فاعل مخلوق قد لا يكون له من العقل أو يكون ، ولا يكون له من الفكر ما يهىء له فعله ، وحتى لو كان له فما يحدث لا يقع فى نطاق الفكر أو العقل .

ولقد أثبت الإنسان بنفسه عن طريق العلم والوسائل التكنولوجية العظيمة التى اكتشفها أنه فى بداية الطريق لاكتشاف الكون وأسرار الخلائق التى وضع الله العلى القدير معجزاته فيها . . ومع ذلك فهى تنطق بوحدانية الخالق وقدرته وبديع صنعه فى خلقه إذا ما أمعنا التفكر والتدبر .

وسباحتنا فى ملكوت الله العظيم فى هذا الكتاب قد تكون فى السموات وقد تكون فى الأرض قد تكون فيك أنت ، وقد تكون فيما حولك فى كل مخلوقات الله التى تراها أمامك سابحة وزاحفة ومحلقة وسائرة وواقعة . . لكنها لا تظهر لنا فى عظمة صنعها وتكوينها وتصرفاتها ، ذلك أن عيوننا وحواسنا وعقولنا قاصرة عن توضيح هذا النظام المبدع الذى أرسى خالق الخلق سبحانه أسسه المعجزة فى مخلوقاته حية كانت هذه المخلوقات أو متحركة أو جامدة .

صحيح أن العين البشرية توضح لنا الكثير مما يتراءى أمامنا . . ولكنها فى حقيقة الأمر لا ترينا إلا الظاهر ، أما الباطن فعنها محجوب ذلك أنها لا تستطيع أن تقرب لنا البعيد لنراه على حقيقته ولا أن تكبر لنا الصغير ليظهر لنا إبداع طبيعته . . أو ليبين لنا وحداته التى تراكبت فى ملكوت داخل ملكوت .

نحن بعيوننا لا نرى إلا الظاهر ، وفى الظاهر تناسق وجمال أو قبح وفوضى . . أما العظمة والإبهار فى الخلق لا تبدو إلا فى الباطن تتجلى لنا فيه وحدات أولية قام على أساسها كل ما فى السموات والأرض .

ومن أجل أن يقف الإنسان على هذا الإبهار فى مخلوقات الله هداه ربه إلى عيون علمية تريه مالا عين رأت ، فتجلت له بها عوالم كانت خافية ، وغير هذه العيون العلمية من تلسكوب إلى ميكرسكوب ضوئى وألكترونى إلى منظار فلكى وهناك أجهزة أخرى كثيرة غاية فى الحساسية تلتقط نيابة عن أحاسيسنا القاصرة عظمة ملكوت الله فى ذرة وفى جزيىء فى خلية فى نسيج عضو فى مخلوق فى أرض أو فى مجرة فى هذا الكون العظيم وكل واحدة من هؤلاء أكوان بذاتها .

فالذرة مثلا هى الوحدة الأساسية للمادة حية كانت تلك المادة أو جامدة ، غير أن كل ذرة ما هى إلا ملكوت صغير . . كذلك الخلية فهى الوحدة الأساسية فى حياة المخلوقات ومع ذلك فكل خلية أكوان دقيقة داخل أكوان .

والأجرام السماوية هى الأخرى وحدات أساسية للمجرات ، وكل مجرة وحدة كونية بذاتها تنتشر فى كون الله العظيم وفى محيط فضائه الواسع المبدع .

كل الباحثين فى أسرار الكون من ذرة إلى مجرة ليسوا قادرين على الوقوف على الحقيقة كلها أو الإلمام بكل تفاصيلها أو الوصول إلى منافذها أو نهايتها .

فالكل غارق فيما فيه يبحث والكل متأمل مدقق وكلما زاد علمه وكثرت معرفته حول مفردات الكون وتجليات خلق الله كلما زاد خشوعا لهذا الإبداع العظيم الذى يتجلى لكل من درس فأوعى .

وهذا هو مقصدنا . . التعرف على خلق الله .

الـبـــــاب الأول

مكـانـة العـلم
فـى الاســـلام

تقدم العلم فى السنوات الأخيرة ، وما حققه من منجزات علمية هائلة فى قرننا الحالى إنعكست فى المنجزات الضخمة من أجهزة تقنية ومخترعات حديثة ، جعل تأثير هذا الإفراز العلمى الهائل على عالمنا المعاصر تأثيرا شاملا على حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

ونظرا لتلك الأهمية المتعاظمة للعلم فى حياتنا ومدى الدور الهام الذى يلعبه فى عالمنا ، كان بديهيا أن تظهر على السطح من جديد علاقة الدين بالعلم وبصورة أكثر إلحاحا عند الباحثين فى الشرق والغرب على حد سواء .

وفى عالمنا الإسلامى كان اهتمام الباحثين والعلماء بتلك القضية مبكرا ، وبصورة متميزة تتفق وطبيعة الإسلام الداعية إلى البحث العلمى وتقصى الحقائق العلمية فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسنا وفيما بيننا من خلائق ، ذلك أن ديننا الإسلامى الحنيف منفرد عن سائر الأديان الأخرى بأنه لم يقتصر فى مفهومه على أن يكون مجرد طريقة يحقق بها الإنسان صلاته مع قوى الغيب العلوية ، كما هو الحال فى غيره من الأديان والمعتقدات ، بل تجاوز تلك الصورة الضيقة إلى حدود أرحب ، وهى صلات الإنسان بنفسه وبمن حوله سواء أكان بشرا أو حيوانا أم مظاهر كونية ، وحث على تدخل العقل والفكر فى الاحتكام فى كل تلك الصلات مع الله عن طريق العلم والتفكير العلمى ، وهذا ما حثنا عليه كتاب الله الكريم وما انطوى عليه من أمور علمية لا تكاد تجد لها نظيرا فى كتب الأديان الأخرى .

فلقد وهبنا الله سبحانه وتعالى نعمة العقل ، وميزنا عن سائر مخلوقاته فى القدرة على التفكير وتدبير الأمور ، وتلك هى الأمانة التى حملها الإنسان ليكون خليفة الله فى أرضه ، فبالعقل يرتقى الإنسان عن الحيوان وسائر المخلوقات الأخرى ، وعن طريقه يتفهم آيات الله ويعقل حدوده ، ويفهم آياته ويتفكر فى خلقه وفى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

ومن هنا جاء تأكيد القرآن الكريم فى أكثر من آية على ضرورة استعمال الإنسان لعقله فى التفكير فيما حوله من آيات الله . وشبه من لم يستعمل عقله فى عمله وسلوكه

ومعتقده بالحيوان بل أضل سبيلا ، حين وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » .

فالدعوة الإسلامية إذن قامت على طلب العلم ومخاطبة العقل والفكر فى كل الأمور ، حتى أن الإسلام رفع الذين أوتوا العلم درجات ، إذ لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فانفرد بذلك عن سائر الأنظمة والأديان الأخرى . . يحث الإنسان على طلب العلم ووجوبه ، لتحريره من مذلة الجهل ، وتمكينه من إنشاء مجتمع بشرى متقدم يستشعر فيه الإنسان إنسانيته .

وليس أدل على ذلك من أن أولى آيات القرآن الكريم التى نزلت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تأمر بالعلم وتحض على طلبه ، " إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرام ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم " .

وهنا يمكن القول إن الإسلام فرض على المسلم العلم كأول مايفرضه ، سابقا باقى العبادات والفروض الأخرى من صلاة وصوم وزكاة وحج ، ذلك أن الطفل وهو دون السابعة يمكنه أن يمارس العلم ويقدر عليه ، أيا كان هذا الطفل ، وفى أى زمان ومكان ، بينما لا تفرض عليه الصلاة مثلا إلا بعد البلوغ وكذلك الصوم والزكاة والحج فلها شروط من السن والاستطاعة ، وبذلك يكون الإسلام قد وضع فريضة العلم سابقة لباقى الفروض والعبادات والتكاليف لأن بها يبدأ الإنسان ويعلم عن غيرها ، وكذلك جعله ـ أى العلم ـ أداة لمعرفة الله سبحانه وتعالى عن طريق آياته فى الأنفس وفى آفاق الكون ، فكلما ازداد الإنسان علما وثقافة ، إزداد إيمانا بعظمة القدرة الإلهية وهيمنتها على الكون والخلائق .

وإذا نظرنا إلى آيات القرآن الكريم وضح لنا ذلك المنهج الإسلامى حيث نجد دعوة صريحة إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وبقية مخلوقات الله الأخرى .

بقول الحق سبحانه وتعالى :

" قل انظروا ماذا فى السموات والأرض "

ويقول جل شأنه

" قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق "

ويقول عز من قائل :

" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت " .

فتلك وغيرها الكثير من آيات القرآن الكريم دليل واضح على وجوب البحث والنظر والدراسة فى أرجاء الكون لمعرفة أسراره التى أودعها العزيز الحميد ، وحث على

طلب العلم لاكتشاف آيات الله التى هي خير الأدلة على وحدانيته وقدرته ، بجانب ما تؤدى إليه من فائدة للإنسان نفسه حين يكشف أسرار الطبيعة ويسخرها فى خدمته ويحقق من خلال ذلك الحياة الجديرة بخلافة الله على أرضه .

وبجانب القرآن الكريم واكبت السنة المحمدية هذا المنهج القرآنى فى طلب العلم ، وأكدته وجعلت طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فأمرنا نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم بطلب العلم ولو كان فى أقصى الأرض ، وأثنى على كل من العالم والمتعلم وجعلهما شريكين فى الخير ، وجعل حضور مجالس العلم أفضل من ألف ركعة عبادة ، ورفع مكانة العلماء إلى مصاف الأنبياء والشهداء .

فقال صلى الله عليه وسلم :
" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة "
وقال عليه الصلاة والسلام :
" أطلبوا العلم ولوفى الصين "
وقال صلى الله عليه وسلم :
" العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس "
وقال عليه الصلاة والسلام :
" من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع "
وقال صلى الله عليه وسلم :

" حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة " ، قيل يارسول الله ومن قراءة القرآن ؟ قال :

" وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ، "
ولعل أكبر مثال ضربه لنا نبينا العظيم فى اهتمامه بنشر العلم بين المسلمين حين جعل فدية كثير من المشركين الذين وقعوا فى الأسر من رجال قريش فى غزوة بدر ، تعليم كل منهم لعشرة من المسلمين .

ومن الأمور التى ينبغى ألا تغيب عن ذهن المسلم ولو للحظة واحدة أن العلم الذى يأمرنا به الإسلام ويحثنا على الخوض فيه ليس هو الفقه والشريعة وعلوم الدين فحسب ، كما يدعى معظم المستشرقين المغرضين ، بل العلم فى مفهوم الإسلام هو كل ما ينمى العقل والملكات والمواهب ، وكل ما يكشف عن حقائق الكون والإنسان والوجود فلكى يعلم الإنسان كيف يخلق من علق لابد له من دارسة التشريح وفسيولوجيا الأعضاء وما يتبعها من العديد الدراسات ، ولكى نفهم حقيقة الكون وإبداع الله فى خلق السموات والأرض لابد لنا من دراسة علوم الحساب والهندسة والفلك والطبيعة . . وهكذا فى كل أفرع العلوم الأخرى ولعلنا نميل إلى أن القرآن

الكريم قد أطلق لفظ العلماء على هؤلاء الذين درسوا تلك العلوم والتى عن طريقها تولدت فيهم الخشية من العلى القدير جل شأنه نتيجة ما شاهدوا من معجزات الله فى خلقه وما لمسوا من قدرته سبحانه وعظيم آياته ، والتى أشار إليها القرآن الكريم حيث قال عز من قائل : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور "

فعندما يدرس الإنسان فى علوم الطبيعة والجغرافيا والفلك وما يتصل بها يدرك قدرة الله العظيم وآياته المعجزة ونظامه المبدع ، فى دورة الحياة وفى تسخير الشمس ودورات الهواء والأحياء من نبات وحيوان وإنسان . وفى تسخير الرياح ، ثم اتصال تلك العوالم كلها ببعضها البعض فى دورة واحدة تجمع تلك الدورات جميعا لتكون دليلا قاطعا ورمزا باقيا وحجة مستمرة على وحدانية الخالق سبحانه وآلائه وعظمته وواسع رحمته بما لا يتسع له عقل إنسان ولا يسعفه به خياله ، بذلك يشاهد العلماء فيشهدون " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم "

وليس أدل على اهتمام القرآن الكريم بالعلم وحرصه على دفع المسلمين إليه ، كل فيما يستطيع الاتجاه إليه وتتوافر له القدرةعليه ، من أنه أورد كافة الحقائق العلمية ، لا النظريات ولا الفروض ، ولكن الثوابت التى قامت الأدلة القياسية والبراهين المادية على صحتها بعد أن قال بها القرآن الكريم بعشرات المئات من السنين وفى كل أفرع العلم وهى تزيد على سبعمائة آية .

وبجانب ما تحققه الدراسات العلمية من تثبيت الإيمان فى النفس والقلب عن طريق العقل والحواس من سمع وبصر وإدراك فيقوى الإيمان وينفذ إلى الروح ويتغلغل فى النفس بعد أن اقتنع به العقل ، فهناك حكمة أخرى وراء دعوة الإسلام للبحث العلمى وهى استخدام الطاقات التى أنعم الله علينا بها فى الكون لتحقيق خلافة الإنسان فى الأرض بعد أن استخلف الخالق عز وجل الإنسان فى تلك الأرض " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة " .

وبمقتضى هذا الاستخلاف فقد وجب على الإنسان الحفاظ على النعم العظيمة التى أوجدها الله فى أرضه وتسخيرها لخدمة الإنسان وتوفير الحياة الكريمة له ، وإعمارها بما أتاحه الله له من كشف لأسرارها عن طريق العلم الذى هيأه الله جل شأنه له وجعله يتعرف على أسرار الطبيعة والكون وباطن الأرض وخيراتها كى يسخرها لإعمارها ومن ثم سعادته .

وليس أدل على اهتمام القرآن الكريم بالعلم وحرصه على دفع المسلم إليه بكل ما يستطيع متى توافرت القدرة له للاستفادة بما اكتشف من آيات الله ، من أن القرآن الكريم أورد كافة الحقائق العلمية فى أسلوب واضح وحث على الولوغ فى معناها ومفهومها واستشراف الحقائق منها . " قل انظروا ماذا فى السموات والأرض " أى اندفعوا نحو التعرف على مجاهل الكون والإنسان ، وأبدعوا فى شتى العلوم من فلك وكيمياء وفيزياء ورياضيات وطب وما إلى ذلك من شتى العلوم والمعارف " فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب " . . وهكذا تتحقق خلافة الإنسان فى الأرض كما أراد الله له .

ولأن العلماء هم أقدر الناس بمعرفة قدرة الله وعظمته فى خلقه سبحانه ، فهم أكثر إيمانا بوحدانيته جل شأنه ، وأكثر يقينا بأن القرآن الكريم الذى شمل حقائق الكون وحث على التدبر فيها هو وحى من عند الله عز وجل ، كما أنهم هم الذين يعقلون آيات الله ويدركون حقيقتها .

" ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد "

" وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون "

فإيمان أهل العلم هو إيمان اليقين بعد تلمس آيات الله ، ولاشك أن إيمان من لمس بحواسه ووعى بعقله ورأى بعينه هو أعلى درجات الإيمان ، لذلك كان العلماء أعلى درجة من الامتياز لا يقاربهم ولايسبقهم إلا الملائكة .

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ».

تلك هى نظرة الإسلام للعلم ، حيث وضعه فى منزلة عظيمة وجعل أهله فى مكانة سامية وحث المسلمين جميعا على بلوغ تلك المكانة حين فرض الإسلام على أهله العلم أول ما فرض لإدراكه أن العلم هو أول ما بدأت به حياة آدم ، فكان أول ما بدأت به آيات القرآن الكريم المنزل من عند رب العزة ، مما لابد معه أن تبدأ حياتنا به ونحرص عليه . . إذ أنه السبيل لإيمان مؤكد بالحجة والبرهان ، ولحياة عامرة بالتقدم والعمران .

الـذرة مفتـاح الـكـون

لا أعرف كيف أبدأ معكم الحديث عن (الذرة) هذا العالم الصغير الخطير الذى يحمل رغم صغره المتناهى سر الخلق . ويجمع حجمه الضئيل أكثر معجزات الكون ويحتضن بين تلك الضآلة وذلك الصغر أسرارا وأسرارا عجز الإنسان عن الوصول إليها . . لتجسد أمامه عظمة الخالق فيما خلق وسوى وكأن الله سبحانه يقول لنا من خلالها . . لقد وضعت سر الحياة فى أصغر ما خلقت لتعوا عن طريقها عظمتى وقدرتى وسلطانى وإبداعى فى خلقى . . المكتظ بالمعجزات الكثيرة التى ترونها بأعينكم . وتلمسونها بأيديكم . . تكمن فى نفوسكم وفيما حولكم وتعرفون بعضها وتعجزون عن فهم أسرار معظمها علها تقودكم إلى طريق الهداية الإلهية . والتسليم لى وحدى . .

وأصدقكم القول أننى تهيبت فى البداية أن أخوض فى هذا البحر الواسع عميق الأغوار كثير الأسرار متعدد المعجزات . وخشيت أن يضل تفكيرى بين أمواجه الكثيرة التى لا يقوى العقل البشرى على تحملها جميعها وفهم خباياها ، وهى التى أتعبت عقول جهابذة العلم ، وأعجزت أكثر الاجهزة العلمية تقدما عن كشف الكثير من مكنوناتها بعد أن سطروا مئات المراجع والكتب العلمية وأجروا العديد من البحوث ، ووضعوا عشرات القوانين والمعادلات العلمية واستنبطوا الكثير من النظريات لتفسير هذا الإعجاز العظيم لخالق هذا الكون وقدرته ، فلم يصلوا بعد هذا المشوار الطويل إلا إلى الفتات فى مكنون أصغر ما خلق الله وأبدع وهو الذرة .

أسو ق هذه السطور لأعلن مقدما أننى مهما حاولت بعقلى المتواضع أن أقدم شيئا عن هذا المخلوق الضئيل الحجم أو أن ألخص فى هذا الحيز الصغير أهم نتائج بحث العلماء وكشفهم لبعض أسرار الذرة ، فلن يمثل هذا الجهد إلا قطرة فى بحر أو نقطة فى محيط لعلم الله الذى لا ينفد وأسراره التى لاتعد ومعجزاته التى لاتحصى فى محيط ذرتنا هذه الصغيرة عميقة الأغوار .

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله »

والذرة هذا المخلوق العجيب يمثل أصغر شىء فى الكون قائماً بذاته وأضأل ما فيه ، ولعل هذا الصغر وتلك الضآلة هما سر عظمتها التى أعيت علماء هذا العصر وحيرت عقولهم بعد أن هداهم الله بعلم من عنده لفك بعض طلاسمها ليضعوا أيديهم على